كنز من كنوز الجاحظ

« أربع رسائل عثر عليها حديثاً »

أصبحت بلاغة الجاحظ وعبقريته وتفوقه على غيره في ابتكار المعاني وموضوعات الكتابة على اختلاف انواعها — أمراً متعالماً مشهوراً . كما أن الحديث عنها يكاد يصبح مملولاً مأجوماً . فلم تبق حاجة للقراء في هذا وانما الحاجة ماسة الى وصف آثاره ، وما اشتملت عليه من مواطن للحسن والابداع ، أو مواضع للمؤاخذة والانتقاد . وهناك أمر آخر له خطره في خدمة آثار الجاحظ : ذلك أن الأغلاط التي تقع فيها ليست كالأغلاط التي تقع في آثار غيره : لأن آثاره هو تقرأ مراراً . وجمله وتعابيره تعاد تكراراً : فاذا كان ثمّ خطأ طلقه الذهن وأشربته النفس . وخاصةً نفوس الناشئين والأحداث . فأصبح من الواجب تتبع ما ينشر من كتابات الجاحظ جملة جملة . وتفليتها فقرة فقرة . والتنبيه الى ما عساه يكون وقع فيهـا من خطأ فيصحح . أو تحريف فيقوّم . ويشار الى الصواب فيها . أو ما يقرب من الصواب .

والمطوّلات من مصنفات الجاحظ إن كادت تعدّ وتحصى ، فإن رسائله وهي القصار من آثاره لا تكاد تعدّ . أو ينفد لها مدّ . وترانا من وقتٍ الى آخر نسمع أنه عثر على جديد من أخباره . أو طريف من رسائله وآثاره .

من ذلك أربع رسائل عثر عليها المستشرق العلامة (پاول كراوس) ضمن مجموعة من رسائله (أي رسائل الجاحظ) محفوظة في مكتبة (الداماد ابراهيم باشا) وقد صحح (كراوس) هذه الرسائل الأربع وعلق عليها وحقق ألفاظها جهد طاقته وطاقة رفيقه في العمل الأستاذ (محمد طه الحاجري) وبعد ان عارضاها بنسخ منها في مصادر أخرى طبعاها في مطبعة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) في القاهرة سنة ١٩٤٣ م . وهذه عنواناتها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(١) المعاد والمعاش

(٢) كتمان السرّ وحفظ اللسان

(٣) الجدّ والهزل

(٤) فصل ما بين العداوة والحسد

وقد كان الأستاذ (كراوس) أهدى اليّ وانا في القاهرة مجموعة هذه النسخ : فإذا هو يقول في مقدمته لها معترفاً ببقاء غوامض فيها : (وما يزال أملنا كبيراً في أن نجد من نقد الناقدين ما عسى أن يجلو هذه المواضع المغشاة فيها) فعلمتُ أن الناشر الفاضل على أكمل ما يكون من أخلاق العلماء . وأنه لا معنى لقبول هديته إلا العمل بأمنيته . فأساعده على رفع الغشاوة عن بعض ما في الفاظ هذه الرسائل من تحريف أو تصحيف .

(وما الكتب إلا كالضيوف فحقها بأن تُتلقى بالقبول وأن تُقرا)

وأزيد على ما قاله هذا الشاعر : إن من حقها ايضاً أن تُخدم وتُكرم . بتصحيح أغلاطها . وتقويم اعوجاجها . وإزالة الغموض إن وجد عنها . فتكون الفائدة منها أتم . والانتفاع بها أكمل .

الرسالة الأولى

وقد عُثر الى اليوم من رسائل الجاحظ وتصار آثاره على عشرين رسالة طُبع منها احدى[1] عشرة رسالة في مصر وثلاث رسائل في ليدن ثم ثلاث في مصر وهي التي نشرها (فنكل) سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) وأخيراً ثلاث الرسائل التي ظفر بها الأستاذ (كراوس) .

قلنا إن عنوان الرسالة الأولى منها (المعاد والمعاش : في الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم) وقد بعث الجاحظ بهذه الرسالة إلى (أبي الوليد محمد بن أحمد بن ابي دؤاد) . ومن مواضع العجب أن مجموعة مكتبة (الدامار) التي وُجدت فيها هذه الرسالة بالعنوان المذكور احتوت على الرسالة نفسها لكن بعنوان

(١) نشرها السيد الساسي سنة ١٣٢٦ هـ ثم أعاد طبعها مع زيادة ونقصان السيد السندوبي (١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آخر ، ورواية أخرى ، اما العنوان الآخر فهو : (الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة كتبها الى محمد بن عبد الملك) (وهو المعروف بابن الزيات وزير المعتصم) ولعل السبب في هذا الاختلاف ان النسخة الأصلية المروية عن الجاحظ قد أغفل فيها اسمها واسم المخاطب بها . فرجح أحد رواة الأدب أن المخاطب بهذه النسخة هو ابو الوليد محمد المذكور واختار لها اسم (المعاد والمعاش) أما الراوي الآخر فرجح ان يكون المخاطب بها (ابن الزيات) وسماها (الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة) . واخذ الرواة من يومئذ يتداولون النسختين بالعنوانين المختلفين . وكان أحد أولئك الرواة يرويها بسند وتعابير وبعض ألفاظ غير ما يرويها به الآخر . وهذا ما جعلهم يقولون إن للرسالتين روايتين .

والرجلان اللذان اختلف الرواة في نسبة الخطاب اليهما في الرسالة كانا من أشهر رجالات العلم والحكم في عصر الجاحظ : كان احدهما قاضياً ، والآخر وزيراً ، وكان للجاحظ اتصال بهما . ودالّة عليهما . يعرف ذلك من التأمل في الأسلوب وطريقة الخطاب الذي كان يوجهه اليهما في رسائله . وتوجد طائفة من رسائل الجاحظ غير الأربع المذكورات قد وُجه الخطاب فيها الى هذين العظيمين أيضاً . و (أبو الوليد محمد) هذا ولاّه الخليفة المتوكل القضاء بعد وفاة أبيه القاضي احمد بن ابي دؤاد .

ومن يتصفح أقوال الجاحظ . ويتأمل أساليبه في هذه الرسائل . وهو يتكلم في الأدب والاخلاق . وما يحمد منها وما يذم . وما يجب ان يُتوخى في معاشرات الناس ومعاملاتهم . لحين المواصلة والمقاربة ، ولحين المجافاة والمباعدة — من تأمل ذلك في كلام الجاحظ خُيل اليه أنه انما يقرأ كتابات ابن المقفع في هذه الموضوعات لولا اسهاب واستطراد أحياناً في كلام الجاحظ . وهذا ما وقع لي بالفعل فإني ذهلت عن نفسي قليلاً وانا اقرأ أقوال الجاحظ في رسائله هذه فحسبتني أعيد قراءة كلام مخبوء في نفسي . واذا المخبوء رسالة (الأدب[1] الكبير) لعبد الله

(١) ويسمى أيضاً الدرة اليتيمة طبعت في بيروت سنة ١٨٩٧ مع مقدمة وتعاليق للأمير شكيب أرسلان ثم طبعت في مصر مضبوطة بالشكل باسم الأدب الكبير بتحقيق أحمد زكي باشا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن المقفع وقد كنتُ لخصت معظم ما فيها بخطي في زمن (الطلب) فرجعت إلى هذا الملخص وجعلت أقرؤ منه جملةً ، ومن رسالة الجاحظ جملة ، فاذا الكلامان متشابهان في كثير من الألفاظ والأساليب وطرق الإيراد . حتى كأن قلماً واحداً نطقهما . او معدناً واحداً من التبر لفظهما . ولا عجب فإن الأديبين يكادان يكونان نسخة واحدة مصححة من ثقافة زمنهما . وادب عصرهما . يشهد لذلك الجاحظ نفسه : فقد وصف في الرسالة الرابعة (العداوة والحسد) ما يلاقيه من عنت حساده له . واستهزائهم بما كان يكتبه ويؤلفه : فكان يعمد الى بعض مصنفاته وينسبها الى غيره من ابناء عصره . فيعجب إذ ذاك حساده بها . وينوهون بمحاسنها وبلاغة صاحبها على مسمع من (الجاحظ) مؤلفها ، وهم لا يشعرون . والى مَنْ كان الجاحظ ينسب مصنفاته المغفلة هذه ؟ قال انه كان ينسبها الى طائفة من فضلاء عصره وفي طليعتهم ابن المقفع .

اما السبب الذي حمل الجاحظ على مخاطبة القاضي ابي الوليد برسالة (المعاد والمعاش) فهو ما ذكره في فاتحتها . وملخصه انه كان يسمع بأبي الوليد ، وعظيم مواهبه ، وغُرّ مناقبه ، وتفوقه على أترابه ، فشوّقه هذا الى الاتصال به ، واختباره في شتى حالاته . فوجد لديه من الفضل والنبل والكرم أكثر مما بلغه . وقد وصله (ابو الوليد) بمودّته ، وخلطه بنفسه . فكافأه الجاحظ على نعمته عليه بتقديم هذا الكتاب اليه .

وقد قال — مخاطباً له — (فرأيت ان اجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثيرٍ من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الأشياء وأخبرك بأسبابها الخ) .

ثم ان الجاحظ انتهز ذكر (العلل) و (الأسباب) التي توخاها في كتابه فقارن بينه وبين مصنفات غيره من العلماء . ففضل كتابه من حيث انه (اي الجاحظ) يبين علل الأشياء ويكشف عن اسبابها . بينما غيره من المصنفين لا يفعلون شيئاً من ذلك . وانما اقوالهم (روايات رَوَوْها عن اسلافهم ، وورائات ورثوها عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اكابرهم) ثم جعل الجاحظ صنيعهم هذا من قبيل فضيلة أداء الأمانة ! ! اما فضيلة الاستنباط والاستشهاد والتعليل فليسوا منها في شيء . قال : (ولن تجد وصايا أنبياء الله ابداً الا مبينة الأسباب . مكشوفة العلل . مضروبةً معها الأمثال) هذا ما قاله الجاحظ وهو فيه يوافق من يلمز علماءنا الأقدمين (الذين كتبوا في التاريخ والأخبار والآداب) من جهة انهم إنما يتتبعون في مصنفاتهم جزئيات الحوادث، وروايتها المختلفة ، ويوردونها من دون تمحيص ، ولا مقارنة، ولا استنتاج، ولا محاكمة ، كما يقول ابناء هذا العصر . فمؤرخونا واخباريونا عشاق رواية ولا قيمة (للدراية) في نفوسهم : فهم لا يعملون عقولهم في تعليل الأشياء ، ولا في امكانية حدوثها . ولو رأى الجاحظ ما كان من ابن خلدون في (مقدمته) المشهورة لقرّت عينه واشتفت نفسه ، ولعده ابنه الوحيد الذي يسرّ به ، ويغتبط بذكائه وادبه .

على ان الجاحظ مهما قرّظ نفسه . ونوّه بحسن مآتيه في مصنفاته . فإن فيها ما يؤاخذ عليه . وكم سمعناه يعيب كلام غيره ويصمه بالمراوغة والاحتيال (ونقول نحن اليوم اللفّ والدّوران) ثم لا نلبث ان نرى ذلك في كتاباته ، ونلمحه في الكثير من محاولاته ومناظراته . فهو كثيراً ما يهوّل على قرّائه . ويدعهم وقد وقد يُهرِجَ[1] بهم الطريق : بحيث يُريهم التافه من الأمور خطيراً ، والخطير حقيراً ، ويذهب بهم في مذاهب الغلوّ والتلطف في القول كلّ مذهب . حتى ليخيل اليهم أن الجبل هباء . والأرض سماء . وحتى ليكاد يقنعهم بأن اللؤم من مكارم الأخلاق . والمشخلب من نفائس الأعلاق . وان السلحفاة قد تبذّ الجرد العتاق في ميادين السباق . ولو شئتُ لاستخرجت من كلامه عدة شواهد[2] على ما ذكرت .

قلت آنفاً إنني سأعمل على تصحيح بعض الفاظ هذه الرسائل . أما تصحيح

---

(١) في الأساس : يُهرج بهم الطريق (بالبناء للمجهول) إذا أخذ بهم في غير المحجة وعدل بهم عن الجادة النافذة الى غيرها ، وأصل الكلمة هندية نقلت الى الفارسية ثم عربت

(٢) واذا تعجل القارئ نموذجات من هذه الشواهد فليراجعها في كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة صفحة (٢١ — ٢٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما وقع فيها من إبهام في البحث او غموض في الجمل والأساليب فإن هذا قد يتعسر • ومعرفة وجه الصواب فيه قلما تتيسر • ولذلك ستبقى صفحة او صفحات احياناً من رسائل الجاحظ مغلقة المعنى في وجه القراء ، إلى ان يفجأوا بالعثور على نسخ جديدة مصححة لهذه الرسائل •

وهذا الغموض في اساليب الجاحظ يكون ناشئاً في اغلب الأحيان من جهل النساخ فيمسخون ما خلق • ويهدمون ما بنى • وقد يكون الغموض ناشئاً من جهل القارئ بأساليب الجاحظ وطريقته في تركيب الجمل ، وتأليف الفِقَر ، التي اعتادها هو (اي الجاحظ) وبعض فحول الكتاب في الصدر الأول : ففهم كلام الجاحظ إذن يحتاج الى إطالة النظر في بعض المواطن من مصنفاته وتصفح الوجوه التي تحتمله من المعاني • ثم التثبت مما يريد من هذا اللفظ أو ذاك التعبير • والا فقد يقرأ القارئ صفحات من آثاره ويتخلل فصولها فصلاً فصلاً • وابوابها باباً باباً ثم يخرج من دون ان يعلق بكفه منها اثر •

فالاستفادة من كتب الجاحظ متوقف على شيئين (اولا) تصحيحها وتحقيق الفاظها • (ثانياً) ألفة اساليبه ، والمران عليها • وتتوفر هذه الألفة في من تضلع من اللغة ، واتقن قواعدها •

ومن امثلة الألفاظ التي يستعملها الجاحظ ويكون لها من المعنى عنده غير ما اعتدنا أن نفهمه منها — ماجاء في ص ٨ من رسالة (المعاد والمعاش) وهو قوله : (واعلم ان الآداب انما هي آلات تصلح ان تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا الخ) فهو يريد بالآداب غير ما نفهمه اليوم منها : يُعرف ذلك بالتأمل في بحثه وتتبعه الى منتهاه • فقد اراد بها المصالح البشرية • والمعاملات الدنيوية : فهو يقول إنها من الدين • وليس الدين بخارج عنها ولا منافياً لها : فالفرقتان (اي الدنيا والاخرة) متكافلتان متضامنتان : لاتستقل إحداهما عن الأخرى • واستشهد لذلك بما قاله (ابن عباس) في تفسير آية (ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اعمى) . فقد قال ابن عباس (من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبرت أمور الدنيا . فكذلك هو إذا انتقل الى الدين : فانما ينتقل بذلك العقل . فبقدر جهله في الدنيا يكون جهله بالآخرة اكثر : لأن هذه (اي الدنيا) شاهدة وتلك غيب . فاذا جهل ما شاهد . فهو بما غاب عنه أجهل)[1]

ومن قوانين الحياة العامة التي نصح الجاحظ للبشر او لمخاطبه (القاضي ابي الوليد) ان يسيروا او يسير عليها – ما يصح ان نسميه قانون[2] (الرغبة والرهبة)

فقد قال الجاحظ ص ١٣ ما نصه (فإذ كان العباد لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره الا بما وصفتُ لك من « الرغبة والرهبة » فأعجز الناس رأياً . واخطأهم تدبيراً . واجهلهم بموارد الأمور ومصادرها . من أمل او ظن او رجا ان احداً من الخلق — فوقه او دونه — يصلح له ضميره او ينصح له بخلاف مادبرهم الله عليه في ما بينه وبينهم . فالرغبة والرهبة اصلا كل تدبير . وعليهما مدار كل سياسة . فاجعلهما (يا ابا الوليد) مثالك الذي تحتذي عليه . وركنك الذي تستند اليه) اهـ

وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

(انما تنظر العيون من النا س بمن ترتجيه او تخشاه)

ومن قوانين الحياة العامة او السياسة العامة التي اشار بها الجاحظ ما يصح ان نسميه ايضاً (قانون المكافأة) وخلاصته ان رئيساً من الرؤساء اذا اراد مكافأة عامل على عمله كان عليه ان يزن المكافأة ونوعها بأدقّ الموازين : فإنّ شخصاً لم ينصح لك . ولم يكن ذا حرمة بين الناس . ولا كفاية للمهمّ من الأعمال

(١) ولي في هذا المعنى كلمة جريئة كنت قلتها في صدد تحذيرنا معشر المسلمين من التفريط في توفير الأسباب الدنيوية الموصلة الى العزة والغلبة : قلت ان الدنيا مطية الآخرة فاذا أضعنا المطية حتى أضعناها كنا للآخرة أكثر إضاعة . ثم علمت ذلك بما عال به ابن عباس غير ان قوله رضي الله عنه أشد صراحة وأكثر بياناً .

(٢) مضمون هذا القانون يشبه من بعض الوجوه ما قرره الوزير الايطالي (ميكياڤيلي) في قوانينه السياسية التي دونها في كتابه (الأمير) وقد تجاهل فيها عاطفة الرحمة والرفق بالانسانية . والقول بأن هذا مطابق لسنن الله في سياسة عباده دعوى باطلة وافتراء على حكمة الخالق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شخصاً مثل هذا إذا آثرته بالمكافأة إيثار هوى (فإن الأثرة على الهوى توجب السخطة، وتوجب استصغار عظيم النعمة، ويُمحق بها الأفضال، وتفسد بها الطائفتان : من آثرته ومن آثرت عليه) ثم أوغل الجاحظ في تحليل هذا المعنى . وتصوير كيف ان من آثرته بالنعمة يسخط أيضاً . وفصّل احوال المستحقين للمكافأة وغير المستحقين لها . حتى قال إن العقوبة احياناً تكون من المكافأة التي بها صلاح البشر .

(من لا يؤدّبه الجميل ففي عقوبته صلاحه)

ومن قوانين الحياة التي اشار بالتزامها قانونٌ جاء به الدين من قبل . وطالما شكا منه ومن الإخلال به رجال الاصلاح الديني : وهو (قانون التوكل) : فقد حدده الجاحظ ص ١٨ وكشف عن معناه بما يحمده عليه كلّ من عرف مبلغ الضرر الذي لحق المسلمين من جرّاء التوكل الكاذب . قال الجاحظ احسن الله اليه (واحذر كلّ الحذر ان يخدعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التواني في صورة التوكل . ويسلبك الحذر . ويورثك الهوينا بإحالتك على الأقدار : فان الله إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل ، والتسليم للقضاء بعد الإعذار[1] . بذلك انزل الله كتابه . وامضى سنته . فقال تعالى : خذوا حذركم . ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة . وقوله ﷺ : إعقلها وتوكل . وسئل ماالحزم؟ قال الحذر . فتحفّظ من هذا الباب . وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى) .

وما ذكرناه من كلام الجاحظ وطريقته في تمييز الأخلاق . ومقارنة صالحها بفاسدها كاف في الدلالة على منزعه في الرسالة الأولى (المعاد والمعاش) ولنقبل الآن على ما في هذه الرسالة نفسها من الأبحاث اللفظية . والفوائد اللغوية . ونرجئ ذلك الى العدد الآتي .

المغربي

---

(١) أي بعد أن يكون الانسان توسل بالأسباب بجهد طاقته وعجز عن الوصول الى غرضه وإذ ذاك يعذره الناس . ويقولون إنه قد أعذر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net